

١٥- صنعاء

حدّث الجغرافيون فقالوا: «إن اليمن منقسم إلى قسمين: سواحل وجبال، وإن الجبال غالبها للأشرف ... وهي جبال شامخة، ذات عيون دافقة، ومياه جارية على قرى متصلة، الواحدة إلى جانب الأخرى، وليس لواحدة تعلق بالأخرى، بل لكل واحدة اهل يرجع امرهم الى كبيرهم. لا يضمهم ملك ملك، ولا يجمعهم حكم سلطان. ولا تخلو قرية منها من أشجار وعروش ذوات فواكه اكثرها العنب واللوز. ولها زروع اكثرها الشعير. ولأهلها ماشية أعوزتها الزرائب، وضاقت بها الحظائر. واهلها أهل سلامة وخير وتمسك بالشرعية ووقوف معها يعضون على دينهم بالنواجذ، ويقرون كل من يمر بهم، ويضيفونه مدة مقامه حتى يفارقهم»^(١).

وصنعاء مدينة حاكت القصص حولها تاجاً، وأحاطتها الأساطير بهالة. تسمنت الجبال الوعرة الجميلة، وتوسطت في قلبها سهلاً نضراً بديعاً. ما أكثر ما مر ذكرها لمناسبة ملكة سبا وتقلها وزيارتها، وما أروع ما تحدثت عنها قصة الملك سيف بن ذي يزن. اطمأن ملوك اليمن الى حصانة صنعاء ومنعتها، فجعلوا منها عاصمة وحصناً، وقالت الاسطورة، والأسطورة تعبر وان كانت لا تحلل، وتفسر وان كانت لا تمنطق، قالت: «كان اسم صنعاء في القديم أزال، فلما وافتها الحبشة قالوا نعم نعم فسمي الجبل نعم اي انظر. فلما رأوا مدينتها وجدوها مبنية بالحجارة حصينة، فقالوا: هذه صنعة ومعناه حصينة، فسميت صنعاء بذلك»^(٢).

قضى أمين الريحاني اثني عشر يوماً في المشقات والمتاعب في طريقه من عدن إلى صنعاء فلما وصلها نسي كل ذلك وقال: «اجل ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر أملاً. وكلما دنوت منها، وهو عكس الحقيقة في أكثر المدن، ازداد رونقها وازداد اعجابك بها. هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة. فيها الهواء أعذب من الماء، والماء أصفى من السماء والسماء أجمل من حلم الشعراء. وفيها البرد، وقد علت تسعة آلاف قدم عن البحر، يستحيل لقربها من خط الاستواء دفئاً. وهي قائمة في قاع سنحان، تزينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم، ومن جهة أخرى الحوطة وفيها السواقي والطواحين. ثم تحيط بها الجبال دون ان تقصر ارجاءها. أقربها اليها عصر وهو يظل المروج في الأصيل، ولقم الذي تجري منه المياه الى المدينة وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج - تلفراف المرايا - الذي يوصل اوامر الإمام من قنة

إلى أخرى. وهذا عشار وفيه الرخام والمرمر. وذاك آنس في الجنوب وشعوان دونه شرقاً وفيهما معادن الطلق. وهناك رضراض وفيه معدن الفضة. وهناك شبام شمالاً وغرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق»^(٣).

وصنعاء بلدة صنعت التاريخ. فقد كان لها في أيام سبأ وحمير شأن، وكان لبقليس البيعة التي بناها الأحباش، وقصور صنعاء دور، أي دور. ولعلّ من أيام العز التي شهدتها صنعاء وغيرها من بلاد اليمن أيام الفاطميين والأيوبيين. فالفاطميون كان لهم نحو اليمن اهتمام لأنها كانت معقلاً من معاقلهم. وما أكثر ما وصل إلينا من كلام الذين زاروا اليمن وصنعاء. فمن ذلك قول عمارة بن أبي الحسن «ليس بجميع اليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلاً من صنعاء، وهو بلد في خط الاستواء، وهي من الاعتدال من الهواء بحيث لا يتحول الإنسان من مكان طول عمره صيفاً وشتاء، وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف وبها بناء عظيم قد خرب، وهو تل عظيم عال وقد عرف بغمدان» وقال معمر: «وطئت أرضين كثيرة شاماً وخراسان وعراقاً فما رأيت مدينة أطيب من صنعاء»^(٤).

أما الهمداني فيقول: «صنعاء طيبة الهواء كثيرة الماء يقال إن أهلها يشتون مرتين ويصيفون مرتين وكذلك أهل فران ومأرب وعدن والشحر. وإذا صارت الشمس إلى أول الحمل صار الحر عندهم مفراطاً، فإذا صارت إلى أول السرطان وزالت عن سمت رؤوسهم ... شتوا، ثم تعود الشمس إليهم إذا صارت إلى أول الميزان فيصيفون ثانية ويشتد الحر عليهم. فإذا زالت إلى الجنوب وصارت إلى الجدي شتوا ثانية، غير أن شتاهم قريب من صيفهم ... وكان لمدينة صنعاء تسعة أبواب، وكان لا يدخلها غريب إلا بإذن، كانوا يجدون في كتبهم أنها تخرب من رجل يدخل من باب لها يسمى باب حقل، فكانت عليه اجراس متى حركت سمع صوت الاجراس من الأماكن البعيدة. وكانت مرتبة صاحب الملك على ميل من بابها، وكان من دونه إلى الباب حاجبان بين كل واحد إلى صاحبه رمية سهم، وكانت له سلسلة من ذهب من عند الحاجب إلى باب المدينة ممدودة وفيها اجراس. متى قدم على الملك شريف أو رسول أو بريد من بعض العمال حركت السلسلة فيعلم الملك بذلك فيرى رأيه»^(٥).

ولأبي محمد اليزيدي مديح لصنعاء يفضلها فيه على غيرها يقول فيه:

«قلت ونفسي جم تأوهها	تصبو إلى أهلها واندهها:
سقياً لصنعاء لا أرى بلداً	أوطنه المواطنين يشبهها
خفضاً وليناً، ولا كبهجتها	أرغد أرض عيشاً وأرفهها
يعرف صنعاء من أقام بها	أعذى بلاد عذا وانزهها
ما أنسى لا أنسى ما فجعت به	يوماً بنا إبلها تجهجهها
فصاح بالبين ساجع لغب،	وجاهرت بالشمات أمهها

ضعضع ركني فراق ناعمة في ناعمات تصان اوجهها
 كأنها فضة مموهة احسن تمويهها مموهها
 نفس بين الاحباب والهة، وشحط الافهام يولهاها
 نفى عزائي وهاج لي حزنني والنفس طوع الهوى ينهنها

ويروى ان يزيد بن عمرو بن الصعق قدم صنعاء ورأى أهلها وما فيها من
 العجائب، فلما انصرف قيل له: كيف رأيت صنعاء؟ قال:

ومن ير صنعاء الجنود وأهلها، وجنود حمير قاطنين وحميرا
 يعلم بأن العيش قسّم بينهم، حلبوا الصفاء فأنهلوا ما كدرا
 ويرى مقامات عليها بهجة يأرجن هندياً ومسكاً اذ فرا^(١)

ولصاحب «الاعلاق النفيسة» وصف لصنعاء حري بالنقل. قال: «هي مدينة اليمن،
 ليس باليمن ولا بتهامة ولا بالحجاز مدينة اعظم منها ولا أكثر اهلاً وخيراً ولا أشرف
 اصلاً ولا اطيب طعاماً منها. وهي مدينة جبلية برية معتدلة الهواء يعدل طيب هوائها
 في جميع السنة هواء ربيعياً في السنة اذا اعتدلت وطابت. ويفرش الواحد في مكان
 فلا يحول من ذلك المكان لحر ولا برد سنين كثيرة. وتدرك عندهم الحنطة دفعتين
 والشعير والأرز ثلاث دفعات واربعاً، ومن ثمارهم وعنبهم ما يدرك في السنة دفعتين
 ايضاً. وهي مدينة كثيرة الأهل طيبة المنازل بعضها فوق بعض إلا انها مزوقة اكثرها
 بالجص والآجر والحجارة المهندمة، فمنها ما اساسها من الجص والآجر وسائرهما
 حجارة مهندمة حسان، وبعض أرض بنائها الجص والآجر وبعضها بالجص. واكثر
 سطوحها مفروشة بالحصى لكثرة امطارها، ولأمطارها اوقات معلومة عندهم علامات
 لذلك لا يخطئون، ويمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً ومن الخريف تمام اربعة
 اشهر ثم تنقطع الأمطار عندهم فلا يمطرون اصلاً الى مثل ذلك الوقت من العام
 الآخر. واكثر ابتداء مطرهم في الوقت الذي يمطرون فيه بعيد العصر وربما تكون
 السماء نقية ولا يرى للمطر علامة والناس تحت بعضهم بعضاً على الفراغ من اعمالهم
 حذراً من المطر فينشؤ السحاب مع فراغهم فيمطرون اكثره من وقت العصر الى وقت
 المغرب، فيجرف السيل جميع ما يكون فيها من القذى ويفسل تلك الكورة بأسرها
 ويجري ذلك الماء الى مزارعهم في مجار قد اتخذوها لهذا الأمر لا يتعطل معه شيء
 من هذه المياه»^(٧).

ومناخ صنعاء مدحه الكتاب والزوار. فهذا الهمداني، من اهل القرن الرابع
 (العاشر)، يقول: «فاما طباع صنعاء فصحيح على ان الغالب عليها البرد ولصحتها
 يلبس الانسان بها في الشتاء عند جمود الماء لباس الخز والكتان والرقائق فلا يدخلها
 البرد لأنه برد يابس... ويلبس الانسان الصوف والمبطنات ودواويج الشعالب في
 صيفها فلا تؤذيه... ولا يتحول الانسان الشتاء والصيف من مكانه، فاذا اشتد بها

الصيف وحر فدخل الرجل يقبل على فراشه لم يكن له بد من ان يتدثر لأن بيوتها في الصيف باردة لأجل قصّة الخير المسبّب بها بواطن البيوت، فيدخل في المخدع على فراشه ويطبق عليه الباب ويسبل السترين والسجف، فلا يتغير ضياء البيت لأجل الرخام الذي يكون في الجدران والسقف. بل اذا كان في السقف رخامة صافية نظر عوم الطائر بظله عليها اذا حاذها، وتؤدي الرخامة لمعان الشمس الى القصة فتقبلها بجوهرها وبريقها»^(٨).

وقد قيل إنه إذا طبخ اللحم بالخل وأنزل القدر شهراً وشهرين وجيء بعد ذلك كان اللحم لم يفسد. وقد نقل الهمداني أن «ابراهيم بن الصلت طبخ قدراً له وكان عزيزاً. فلما كملت وكلت نارها عزم على الغداء فهو كذلك حتى أتاه رسول أبي يعفر ابراهيم بن محمد بن يعفر، فاتبعه من ساعته الى شبام. فلما وصله أمره بالمضي الى مكة وكان أحد الطرادين وأمر له بناقة وزاد، ودفع إليه كتباً يوصلها بوالي مكة. فمضى الى مكة وأقام حتى خرج جوابه وعاد الى شبام، فأوصل جوابه ثم صرف الى منزله. قال: دخلت وانا جائع، فنظرت الى القدر على الأثافي، والى ذلك الخبز قد يبس في منديله. قال: فكسرت من الخبز شيئاً في قصعة وأحررت ذلك القدر ونكبته على ذلك الخبز حتى تشربته فكان كمدر أسخنه يوم ثالث، وذلك بعد شهر وكسر»^(٩).

وقد نقل رواية الأدب والشعر وصفاً شعرياً طريفاً لمسافة أربعة وعشرين يوماً من جزيرة العرب وضعه أحمد بن عيسى الرداعي. ذلك ان هذا الرجل خرج من بلدة رداع باليمن الى مكة على محجة صنعاء في أرض نجد العليا، فوصف البلاد الى مكة، وقد سميت قصيدته أرجوزة الحج. وكان المقطع الأول فيها:

أول ما أبدأ من مقالي	بالحمد للمنعم ذي الجلال
والمن والآلاء والأفضال	والملك والجد الرفيع العالي
عد خليلي كم مضت ليلال	من شهر ذي القعدة مع شوال
ثم أنم بالكور على شملال	عبيدية او قطم ذيال
قد دق منه موضع الحبال	ثمت ناد القوم بارتحال» ^(١٠) .

فلما وصل الرداعي الى صنعاء قال يصفها:

فهي يقول العلم غير الشك	مختم العلم ودار الملك
وعصمة المأزول حتى الدك	أما ومجرى ماخرات الفلك
ألية ما شبتها بالافك	لقد علت صنعاء دار الشرك
في الدهر عن عز معين مشكي	وأصبحت معدن أهل النسك
سقيا لصنعاء بجود حشك	وأردفت عزا رفيع السمك» ^(١١) .

ويبدو أن أهل صنعاء كانوا يتمتعون بالخير وينعمون به شأن الكثيرين من سكان

اليمن. فقد قال في ذلك ابن رسته: «وفي كل منزل من منازلهم بئر يستقى منها للشرب. ويفضل ماء الآبار على مياه العيون الجارية عندهم، ووصف فقيه منهم أنه وزن ماء من آبارهم قليلاً مع مثله من ماء دجلة فوجد ماء البئر أخف من ماء دجلة. وبقرب كل مسجد من مساجدهم إلا القليل منها سقاية فيها ماء للسبيل ومغتسل ومتوضى، كل مصهرج... وطعامهم البر النقي والعُلس وهو شبيه بالحنطة... فيقشر من قشرته ويطحن ويخبز فيوجد طعمه أطيب من طعم خبز الحنطة. وعندهم فواكه سرية مثل أنواع التفاح والبرقوق وهو المشمش والفرسك وأنواع وهو الخوخ ومن أنواع الاجاص ما ليس بخراسان، والكمثرى أنواع كثيرة. وعندهم على ما زعموا قريب من سبعين لون عنب وعندهم النخيل في قراها دون قصبته، والموز عندهم كثير في كل موضع يدرك الموز عندهم في كل أربعين يوماً يقطع ثمرته ولا ينقطع القطف عنهم أبداً، وعندهم باقلي رطب وقصب سكر وجوز ولوز وفستق ورمان وتين وسفرجل وبطيخ حسن غير طيب يؤكل مع السكر، والقثاء وأنواع الخضضر، والأترج عندهم كثير كُبَّار حلو الطعم. وألوان الرياحين والورد والياسمين والرنجس والسوسن... ويفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين يشتري جميع ذلك بسعر واحد. ومن عندهم يجلب الادم والنعال المشعرة والانطاع والبرود المرتفعة والمصمت والأردية، يبلغ الثوب من البرد عندهم خمس مائة دينار، وألوان الفصوص والأواني بقرانية وسعوانية والجزع، وأنواع الخرز، يبلغ الفص من البقراني مائة دينار وأكثر. ولهم سوق على حدة لا يباع فيها إلا المزامير قد شدوها حزماً ونضدوها في حوانيتهم، ولهم خانات كثيرة ومحال فيها خلق كثير يعملون أواني الجزع وأنواع الخرز»^(١٢).

وقد خلف لنا ابن بطوطة، شيخ الرحالة المسلمين انطباعه عن زيارته لصنعاء في القرن الثامن (الرابع عشر) قال: «وانصرفت مسافراً الى مدينة صنعاء، وهي قاعدة بلاد اليمن الاولى. مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالأجر والجص، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع، معتدلة الهواء طيبة الماء. ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان، فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر، وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة. ومدينة صنعاء مفروشة كلها، فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها. وجامع صنعاء من أحسن الجوامع»^(١٣).

الهوامش

(١) ابن فضل الله العمري: مسالك الابصار، مخطوطة طبقبو سراي، ورقة ٤٧٤/٢.

- (٢) ياقوت، ج ٣، ص ٤٢٦.
- (٣) الريحاني، أمين: ملوك العرب، بيروت، صادر، ١٩٥١، ج ١، ص ١٢١.
- (٤) ياقوت، ج ٣، ص ٤٢٦.
- (٥) نفس المكان، ج ٣، ص ٤٢٦.
- (٦) نفس المكان، ج ٣، ص ٤٢٦-٤٢٧.
- (٧) ابن رسته، ابو علي أحمد: الاعلاق النفيسة، ليدن، بريل، ١٨٩١، ص ١٠٩-١١٠.
- (٨) الهمداني: صفة جزيرة العرب، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٥٣، ص ١٩٥-١٩٦.
- (٩) نفس المكان، ص ١٩٧.
- (١٠) نفس المكان، ص ٢٣٦.
- (١١) نفس المكان، ص ٢٤١.
- (١٢) ابن رسته، ١١١-١١٢.
- (١٣) ابن بطوطة، ابو عبد الله: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، باريس، المطبعة الوطنية، ١٨٧٧، ج ٢، ص ١٧٦-١٧٧.

من الاعمال الكاملة للدكتور نقولا زيادة , اصدار الدار الاهلية للنشر والتوزيع في بيروت , الجزء الثالث عشر - مدن عربية